

الطبري والتأريخ لأحداث عصره

الدكتور سهيل زكار

جامعة دمشق

الطبري مفسر ومؤرخ كبير ممتاز بنظرة عالمية في التاريخ وهو فقيه متمكن يستمد مصادره من القرآن الكريم و تراث الاسلام. تناول الكاتب في مقالته تاريخ الطبري بالبحث في أسلوبه في نقل الروايات المختلفة، وقارن بينه وبين عدد من المؤرخين كابن عساكر وغيره. وتحدث عن تاريخ تصنيف الكتاب ومدى عرضه لتاريخ الاندلس وبلدان المغرب العربي. وارتباطه بالتاريخ السياسي والعسكري وابتعاده عن المنهج الفكري.

المعتصم - بالخلفاء يخلعون وينصبون كل يوم ربما أكثر من خليفة واحد، وتقلب على بقاع ديار المسلمين متغلبون، أسس كل منهم دولة واتخذ لنفسه بلاطاً حشر إليه ما أمكنه من العلماء، لذلك غدا لكل دولة نشاطها العلمي المتميز و سياستها الإقليمية الذاتية الخاصة، لذلك أخذت «الشخصيات الإقليمية» بالظهور لتحل محل شخصية الأمة الإسلامية الواحدة.

وكان علم التاريخ عند المسلمين قد خطا خطوات واسعة في ميادين تطوره فهذا العلم الذي جاء بالأصل وليد علم الحديث بوساطة علم السيرة والمغازي قد استقل إلى أبعد الحدود عن فن السيرة والمغازي وعن علم الحديث، فهذا خليفة بن خياط [ت: ٢٤٠ هـ] قد بدأ تاريخه بالهجرة النبوية إلى المدينة وتخلي عن التأريخ للفترة المكية ولعصور ما قبل الإسلام، لأنها جاهلية جبها الإسلام.

كما أن غالبية المؤرخين قد شرعوا بالتخلي عن طرائق المحدثين لايهامال الأسانيد فحسب، بل بدمج متون الروايات المختلفة بغية تقديم رواية واحدة على مسؤولية المؤرخ لاعلى مسؤولية الرواة.

من المفترض أن يكون المؤرخ مرآة لعصره وبيئته، تنعكس في كتاباته بشكل مباشر أو غير مباشر صورة وقائع أيامه وردات الفعل تجاهها، وكان العصر الذي عاشه الامام المؤرخ محمد بن جرير الطبري هو القرن الثالث للهجرة والبيئة هي المشرق الاسلامي بما في ذلك بلاد الشام ومصر، فإلى أي مدى كان مؤرخنا العظيم مرآة للقرن الثالث، قرن العطاء الإسلامي الاعظم والأشمل.

وصلت الحضارة الإسلامية في القرن الثالث إلى ذروة العطاء والشمولية العلمية، والامام الطبري هو بالفعل خير ممثل ونموذج للمثقف المسلم في ذلك العصر، فقد أتقن معرفة علوم العربية والقرآن الكريم والفقه والحديث، و نال قسطاً وافياً من جميع صنوف المعارف التي توفرت آنذاك للمسلمين، وهذا واضح تمام الوضوح في النتائج الغزيرة والرائع الذي خلفه لنا، وهو جلي أيضاً في أخبار سيرة حياته وما حكاه عنه تلاميذه وأبناء عصره. ولم تكن صورة القرن الثالث كلها مشرقة كاشراق المعارف والعلوم والثقافات فيه، وفي هذا القرن فقدت ديار الإسلام وحدتها السياسية، و تحكم ضباط القصر الأتراك - أتراك

فقد افتتح ابن الأعمش الكوفي وهو من رجال القرن الثالث كتابه الفتوح بقوله «حدثني أبو الحسين علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن..... وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سراً وعلانية، وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم وألفته حديثاً واحداً على نسق واحد»^(١). بعد هذا شرع في سرد الوقائع مهماً للحوليات وكان ينتقل بأسلوب ملحمي من موضوع إلى آخر دون إشارة لاسناد من الأسانيد.

أضف إلى هذا إن غالبية المؤرخين مالوا نحو كتابة الموضوعات المتخصصة وأقلعوا عن التاريخ العام وهذا واضح في فتوح ابن الأعمش وفي كتابي أنساب الأشراف وفتوح البلدان للبلاذري - أبو بكر أحمد بن جابر - [ت: ٢٧٩ هـ]. كما أن التمزق السياسي قد شجع تيارات التاريخ المحلي، وهكذا كتب ابن عبد الحكم [ت: ٢٥٧ هـ] عن فتوح مصر والمغرب، وأرخ ابن يونس [٢٨١ - ٣٤٧ هـ] لأخبار مصر ورجالها ومن طرأ عليها من الغرباء، وكتب الكندي [٢٨٣ - ٣٥٠ هـ] كتاباً عن ولاية مصر وآخر عن قضائها كما وكتب عن خططها ومواليها، فمصر الآن قاعدة دولة اسلامية مستقلة و كبيرة مرشحة لتكون مقراً للخلافة الفاطمية. يضاف إلى هذا كتب أبو حنيفة الدينوري [ت: ٢٩٠ هـ] حول الأخبار الطوال وكتب ابن قتيبة كتاب المعارف مازجاً من جديد الأدب بالتاريخ.

لقد مارس الكتابة بالتاريخ أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء مزج بعضهم الأخبار التاريخية بطبقات المحدثين والتجريح والتعديل كما فعل أبوزرعة الشامي ويعقوب ابن سفيان الفسوي [كتاب المعرفة والتاريخ] والملاحظ أن مامن واحد من المصنفين قد أقدم في ظل هذه التيارات وفي عصر التمزق السياسي والصراعات الاقليمية والصراعات ضد الخلافة، قد أقدم على التاريخ الشامل للمسلمين أو للعالم المعروف آنذاك قبل الاسلام وبعده.

لقد صعب على المؤرخين مواجهة أمراض عصرهم: وبالنظر لارتباط غالبيتهم بقصور الحكام ورجالات السلطة، فقد سايروهم بالاهتمامات الاقليمية [كما هي الحال في أيامنا هذه] فلم يكتبوا بالتاريخ العام. انه فقط الامام محمد بن جرير الطبري هو الذي تخطى هذه العقبة الكأداء، و تحدى التمزق والاقليمية والمصالح الآنية،

فكتب بالتاريخ العام للاسلام والمسلمين ولغيرهم، وبذلك تميز عن غيره، ولاشك أن هذا قد أسهم كثيراً في تخليده وتميزه و شهرته، فالشعوب الاسلامية التي تتوجه في آن واحد نحو قبلة واحدة وتؤمن بالله ورسوله ما كانت قط غير وحدوية. ولعل مردّ هذا إلى أن الامام الطبري جاء بالأصل من طبرستان وقد نهل علوم الاسلام في بلده وفي بلدان أخرى في ايران ثم تحول نحو العراق، فجال في مدنه حيث أخذ عن علماء كل فن من الفنون، ثم زار بلاد الشام أكثر من مرة وكذلك مصر، وبعد طول تجوال استقر أخيراً في بغداد دار الخلافة، فهو على هذا انتمى الى العالم الاسلامي، وإلى الثقافة الاسلامية الشاملة التي نالها وأمن بها، وبما أن الطبري لم يتزوج ولم ينجب ولم يتصل بذئ سلطان، فقد ظل - وإن قام أخيراً في بغداد - الاسلام والمسلمين وديارهم هم الأهل والوطن والمعتقد والانتماء والهوية. لقد بلغ الطبري منزلة من العلم أهلته ليكون فقيها لجميع المسلمين، وصاحب مدرسة فقهية جديدة متميزة هو امامها، لذلك كان من المنطقي أن يؤرخ للاسلام ولجميع المسلمين، وفق نظرة خاصة وانطلاقاً من رؤية تاريخية واضحة. إن مسألة الوعي التاريخي الذي تجلّى لدى الطبري على درجة عظيمة من الأهمية، فقد تمسك بوحدة الاسلام والمسلمين، وكتب بالوقت نفسه من منظور تاريخي عالمي، استمد مصادره - وهو الفقيه المتمكن - من القرآن الكريم و تراث الاسلام، و ما عرفه المسلمون وامتلكوه عن تواريخ الأمم والشعوب لما قبل الاسلام، وقد رأى أن التاريخ الانساني قد مرّ بطورين متميزين: ما قبل الاسلام وما بعده، ومن المنظور القرآني إن طور ما قبل الاسلام جملة من العصور كان النشاط التاريخي الرئيسي فيها هو نشاط الأنبياء والرسل، وقد ختم هذا الطور برسالة الاسلام التي كلف بها خاتم الأنبياء سيدنا - محمد صلى الله عليه وسلم - و بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - بدأ طور جديد هو طور الملوك. ودون وقفة مطولة مع ما تؤمن به الآن حول دور الفرد في صنع أحداث التاريخ وأن التاريخ هو تاريخ الشعوب لا الأباطرة والحكام والملوك، إن في العنوان الذي منحه الامام الطبري لتاريخه وهو «تاريخ الرسل والملوك» دلالات كبيرة، فهو على هذا قد اعتبر الذين حكموا المسلمين بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - ملوكاً، ولوراهم غير ذلك لعنون كتابه بـ «تاريخ الرسل والخلفاء والملوك»، ولا شك أنه بذلك كان يتحدى النظام العباسي وعقيدته المعلنّة في عقرداره.

الطبري والتاريخ لاحداث عصره

قال الامام الطبري في مطلع كتابه: «و أنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربنا - جلّ جلاله - خلقه الى حال انتهائهم، من انتهى اليها خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه، فشكر نعمه: من رسول مرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة مستخلف»^(٢).

و من المقرر أن الامام كتب تاريخه بعدما فرغ من كتابه في التفسير، وشكلت مواد تفسيره أساساً متيناً للمواد التاريخية، وهو قد اعتمد في كتاب التفسير طريقة التفسير بالعلم، وابتعد عن الرأي لكرأته له، لذلك جاء تفسيره عبارة عن سلسلة من الأسانيد والروايات.

و نحن وإن كنا لا نعرف متى وأين جمع مواد تاريخه، الذي نعرفه أنه التزم المنهج نفسه لكتاب التفسير في تدوينه لمواد كتابه في التاريخ بقدر الامكان، فقد تقيد بشكل صارم بالأسانيد حسب طرائق المحدثين، إنما اضطر في الأجزاء - لاسيما ما تعلق بأيامه - الى التحرر تدريجياً من هذا المنهج إلى حد التخلي نهائياً عن الاسانيد، حيث استخدم أولاً صيغاً، مثل: ذكر لي بعض أصحابي، ذكر لي جماعة من أصحابنا، ذكر من رآه و شاهده، أخبرني جماعة من أهل الخبرة، ذكر هذه القضية بعض أصحابنا عن حدثه أنه حضرتم باستخدام عبارات مثل، وفيها - فيما ذكر -، و ذكر أن، وفيها أمر، وفيها حبس، وفيها وجه، و فيها شخص، وقد قيل، و كتب السلطان [بدلاً من خليفة أو امام].

ولاشك أن مرد هذا الى المعاصرة، ولعدم عودته إلى الوثائق والمدونات الرسمية، فهو لم يكن من رجال الدولة أو العاملين لديها، مثل أفراد أسرة آل الصائبي الذين ذبلوا على تاريخه فيما بعد.

وبما أن كتاب التاريخ جاء من بعض الجوانب وليداً لكتاب التفسير التزم الامام الطبري بما نقله غيره ولم يحاول أن يتدخل بالروايات لاعن طريق النقد أو التعديل أو التنبيه أو الشرح، و فعل الشيء نفسه بالنسبة لما وصل الى مسامعه من أخبار عصره فدونه.

قال مؤرخنا في خطبة كتابه: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادنا في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أي راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي

أنا مسندها إلى روايتها فيه دونما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أخبار الحداثين غير واصل الى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين و نقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابنا هذا من خبر ذكرنا عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستبشعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا»^(٣). إن هذا الموقف قد يقبله الانسان بصعوبة بالنسبة لأخبار الماضين من مؤرخ لم يتقن فن علم الرجال من جرح و تعديل مع القدرة على نقد المتن و تصحيحه، أما بالنسبة للامام فصعب جداً قبوله، والأصعب منه، لابل المحال، قبول هذا المنطق بالنسبة لما عاصره من أحداث، إنه منطق مرفوض، فالبحث في التاريخ يقتضي تسجيل أخبار الوقائع كما يعتقد أنها وقعت، والتاريخ كما دونه الطبري أخبار سياسة وحرب، فهو على هذا «ليس ديناً» كما في تسجيل ما تعلق بالتفسير والحديث والشائيل. أضف إلى هذا لقد كان بإمكان الطبري الذي طاف في بلدان ايران والعراق والشام ومصر أن يصف لدى عرض بعض أخبار هذه البلدان، مشاهداته و خلاصة تجاربه، كما فعل - مثلاً - البلاذري عندما أرخ للثغور في بلاد الشام، أو كما فعل الواقدي حين أرخ للمغازي، حيث ذهب إلى مواقع الأحداث و تفحصها بكل دقة ممكنة ومن وصفها بشكل مفيد جداً، فقد زرت منذ عدة أشهر موقع أحد، فوجدت صعوبة بالغة في تخيل وقائع معركة أحد، ولولا وصف الواقدي للمكان لبقيت في حيرة حول هذا القضية.

والمثير للدهشة في موقف الامام الطبري هذا هو أنه أيضاً لم يتأثر بطرائق الكتاب المسلمين بحب الاستطراد، و سرد الحكايات و ضرب الأمثلة.

لقد حرمننا الطبري من مواد لاشك أنها كانت ثمينة جداً عمرانياً و سياسياً و حتى اجتماعياً، ولاشك أن أمانة هذا المؤرخ الكبير و شدة تقيد بطرائق المحدثين، دفعته الى التعويل كليا على غيره و إلى اهمال النقد و حتى إلى تعطيل ملكات النقد العقلية، اللهم إلا أحيانا عند ما كان يقول: والله أعلم.

والغريب حقاً في هذا المقام هو أن الامام الطبري أورد الأسانيد فقط، ولم يورد أساء الكتب التي نهل منها معلوماته، فهو بدون شك كان قد اطلع على مصنفات من سبقه مثل سيف بن عمر، وأبي مخنف والكلبي وابن اسحق، وغيرهم، وأنه حمل اجازات في رواية محتويات هذه الكتب، وكم كان مفيداً لو أنه لم يهمل أسماء الكتب ولم يكتف بالأسانيد فقط، فهو بهذا سبب خسارة حضارية كبيرة، حيث حرمانا من معرفة من أي كتب الشيوخ نقل، كما حرمانا من التعرف إلى التوزع الثقافي في عصره في الأقاليم ومن نوعية المكتبات ومحتوياتها في كل بلد من البلدان، إن وجدت.

وقد يدافع المرء عن هذا الموقف بقوله: إن الامام الطبري الذي التزم بطرائق المحدثين كانت الرواية هي المحببة إلى نفسه في التاريخ كما في التفسير، وإن اسم الراوي غالباً ما يغني عن اسم مؤلفاته، لأن مؤلفات الأوائل كانت محدودة العدد، محددة المواضيع، لكن وقد التزم هذا الامام العظيم بطرائق المحدثين، حبذا لو تابع هذا الالتزام بجميع شروطه فنقد رجال الاسناد وجرح وعدل، ورجح رواية على أخرى، ولم يرو عن الضعفاء ولا روايات الاسرائيليات والأساطير، ففي هذا فوائد كبيرة ومنافع لا تحصى، أولها من حيث نوعية المواد التاريخية وثانيها بالنسبة لعصر الطبري وشخصيته العلمية، فهو قد حرمانا من التعرف إلى ملكة النقد والجرح والتعديل لديه كمحدث بارز، كما وحرمانا من التعرف إلى المرحلة التي وصل إليها علم الرجال في أيامه مع مدى تأثر النظرة العلمية بالمؤثرات الاقليمية وغيرها من المؤثرات.

ذلك أن تاريخ الاسلام، لاسيما الفترات المبكرة منه، أشد حساسية من غيرها، فيها روايات أملت عواطف الرواة المذهبية والعرفية والاقليمية والسياسية، أو اختلاف الموارث ووجهات النظر والفهم، مع مدى التعمق في معرفة حقائق الأمور، وكان تاريخ صدر الاسلام وما زال موضع مناقشات حادة، وموطن جدل كبير، لقد كان على الامام الطبري، وهو مؤرخ محايد، عميق الايمان؛ جمع الأصول، ألا يكتفي بجمع المواد المروية و تكديسها وتصنيفها وتقميشها، بل كان من المتوجب أن يعرض كل رواية من رواياته بشكل كامل دونما توقف لابرار مشاكل الخلاف، ومن ثم يوجه النقد إلى الروايات ويرجح بعضها على

بعض. لو أنه فعل ذلك لسهل علينا التعامل مع كتابه، ولساعدنا بشكل كبير على الوصول إلى حقائق الوقائع، ولقدم لنا برهان كبير على أن حركة التأريخ بالعربية في القرن الثالث قد قطعت أشواط بعيدة في التطور، وأن الفقيه والمحدث يمكنه أن يكون بالفعل مؤرخاً مبدعاً، وليس مصنفًا محضاً.

واخفاق الطبري في الوصول إلى هذا الهدف المنشود فيه برهان على أن الفقيه والمحدث إذا ما كتب في التاريخ لم يتعد دوره الجمع والتصنيف والتقميش، فهو قد تدرب على هذا النوع من التقنية عقلياً وممارسة عملية، فهذا هو الحال في التاريخ الاسلامي، ويحضرني هنا شاهد من بين ما أعمل به حالياً من مصادر تاريخ بلاد الشام، فقد كتب ابن عساكر في تاريخ دمشق، كما كتب بعده بجيل ابن العديم في تاريخ حلب. والفرق بين كتابي ابن عساكر وابن العديم كالفرق بين الفقيه ورجل الدولة السياسي المحنك والاداري الخبير، وابن عساكر فقيه محدث كتب بالتاريخ، في حين كان ابن العديم سياسياً ورجل ادارة صارت له اهتمامات بعلم الحديث، وحين كتب في تاريخ حلب برهن من كل جانب أنه يمتلك احساس المؤرخ ومنهجه، وأنه ليس كابن عساكر مجرد مقمش مصنف.

ومن المؤكد أن هذا الوضع لا يقلل كثيراً من أهمية ابن عساكر وتاريخه العظيم لدمشق، والشيء نفسه يتعلق بالامام الطبري، فتاريخ الامام الطبري - على الرغم من كل شيء - خزانة من المعلومات التاريخية الاسلامية القيمة، فيه روايات عن تاريخ صدر الاسلام ونصوص جمعها بكل حرص وعناية ودقة ممكنة، و سردها بكل حياد ونزاهة، لذلك احتل مكانة الصدارة بين مصادر تاريخ الاسلام وهي مكانة لم يحتلها غيره، ولا يمكن لمصدر آخر ان يزاحمه عليها، فمن غير الممكن بالنسبة لأي باحث في تاريخ الاسلام الاستغناء عنه، ومهما عاد المرء إلى المصادر المختلفة سيجد نفسه مع كل مصدر يبدأ حيث انتهى الطبري، قال الوزير القفطي⁽⁴⁾ «وإذا أردت التاريخ مفصلاً فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري - رضي الله عنه - فإنه من أول العالم وإلى سنة تسع [الأصح: ثلاث] و ثلاثمائة، ومتى شئت أن تقرأ به كتاب أحمد ابن أبي طاهر وولده عبيد الله فنعلم ما تفعل لأنهما قد بالغتا في ذكر الدولة العباسية، وأتيا من شرح الأحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده، وهما في الانتهاء قريباً المدة،

الطبري والتاريخ لأحداث عصره

والطبري أزيد منها قليلاً».

ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فإنه يداخل الطبري في بعض السنين، ويبلغ إلى بعض سنة ثلاث [الأصح: خمس] وستين و ثلاث وستين وثلاثمائة، فإن قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله، فإن في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الأماكن، ثم كتاب هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتم عليه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة، ولم يتعرض أحد في مدته إلى ما تعرض له من أحكام الأمور والاطلاع على أسرار الدولة، وذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع، وتولى هو الانشاء أيضاً، فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال، و هو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين وأربعمائة».

من المؤكد - كما أشرنا من قبل - أن الامام الطبري شرع في تصنيف كتابه في التاريخ بعد ما فرغ من تصنيف و املاء كتاب التفسير، ولعله فعل ذلك بعد سنة / ٢٩٠ / للهجرة، وقد فرغ من إملائه و مراجعته يوم الأربعاء الثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٣ للهجرة.^(٥)

و طبعاً أملى الطبري تاريخه في بغداد، والذي لانعرفه: هل كانت مواد الكتاب، أو بعضها مجموعة لديه قبل الاستقرار في بغداد، و هل كان في خطه المبكرة التاريخ للاسلام والمسلمين منذ ان يجمع العلم من مختلف الآفاق؟

إن مسألة المصادر حاسمة بالنسبة لكل مصنف بالتاريخ، و إذا كنا غير قادرين الآن على إيجاد حل لمسألة المصادر هذه [لم يتعرض لهذه المسألة جواد علي في كتابه موارد الطبري] الذي نعرفه أنه عندما شرع الامام الطبري في املاء تاريخه كان العالم الاسلامي قد شهد قيام خلافة معارضة للخلافة العباسية هي الخلافة الفاطمية في المغرب، فهل لهذا السبب، ام لأسباب أخرى تتعلق بالمعرفة الجغرافية المباشرة والخلفيات، و باهتمامات الناس في بغداد، اهتم الامام الطبري بالتاريخ للأندلس و بلدان المغرب العربي اهتماماً عرضياً و سطحياً فقط؟.

لعل المواد الاخبارية المحلية عن تاريخ الأندلس والمغرب لم تتوفر له لأنه لم يزر لبلاد الأندلس ولا بلدان المغرب، وإذا صحّ هذا التعليل فإنه قد يعني أن الامام الطبري حين اهتم بتاريخ

بلدان المشرق الاسلامي فعل ذلك لانه كتب في بغداد حيث المواد الشرقية و فيرة، و في الوقت نفسه حين اهتم بتاريخ مصر والشام بعض الاهتمام تحكم به حجم المواد التي توفرت له ببغداد لاجم ما جمعه من مصر والشام، إن كان قد جمع شيئاً.

نحن نعلم أن حركة التاريخ بدأت في المغرب متأخرة - بعد عصر الطبري - و أن هذه الحركة قد بدأت في الأندلس أبكر، لكنها سارت على سنن أهل المشرق و اتبعت مناهجهم. فهل هذا ياترى سبب قلة المواد التي توفرت في تاريخ الطبري عن بلدان العالم الاسلامي التي وقعت غربي نهر الفرات؟.

أرجح هذا لأن الطبري عوّل على النقل بالاسناد، و شرع في املاء تاريخه بعدما مضى على استقراره في بغداد. فترة طويلة، و أن فكرة التاريخ لم تكن قديمة لديه، و مع هذا لكم يتمنى المرء لو أن الطبري علل لنا هذا الأمر، أو اشار إلى ما يساعد على تعليله، ولم يتركنا في لجة أوهام الفرضيات التي قال بعضها. إنه بخلفياته الاقليمية و لكتابته في بغداد، اهتم ببلدان المشرق اهما ما رئيسيا و أهمل بقية البلدان، ذلك أنه من الملاحظ أن المواد في كتابه حول بلدان جند الكوفة أقل منها حول جند البصرة.

و إذا ما استعرضنا عناوين محتويات الأخبار المتعلقة بالقرن الثالث للهجرة التي أودعها الطبري في تاريخه، و بعد ذلك تفاصيل الروايات نلاحظ أولاً أنه استمر بالعناية بالتاريخ السياسي والعسكري المرتبط بالدولة والمؤسسات الحاكمة و أهمل ما عداها مع أنه كان رجل فكر، كما و نلاحظ أن القرن الثالث للهجرة قد شهد أحداثاً على درجة عظيمة من الأهمية من ذلك القضاء على ثورة بابك، و نصر عمورية الكبير، إلى مصرع الخليفة المتوكل و سيطرة ضباط القصر، الأتراك على السلطة في دار الخلافة، و حكمهم على الخلفاء، و تمزق ديار الخلافة العباسية و ظهور الدول المستقلة عنها، و ثورة الزنج، و أخيراً لا آخراً حركات القرامطة.

لقد شهد القرن الثالث للهجرة تحولات اجتماعية كبيرة مع انقلابات اقتصادية وصناعية، و تجمعت الثروات في أيدي قليلة، و صار للبيوتات التجارية والمالية مكانتها على صعيد السلطة و غيرها، كما اتسع حجم الاقطاع الزراعي و بات رجال السلطة يملكون العديد من القرى الدساكر و يطلبون المزيد فيحصلون عليه بشق السبل الملتوية، من شراء بالاكراه أو اغتصاب أو

نعم لم يجشم نفسه هذا العناء عناء الرد على قاضي قضاة المسلمين، وكيف يفعل ذلك وقبل قليل جرّ الخليفة على وجهه وسحله سحلاً.

لقد عاصر الامام الطبري أحداث القرن الثالث وعاش وقائع النصف الثاني منه، عاشها في العراق والشام ومصر الطولونية، وهو كما أشرنا من قبل لم يرتبط بالسلطة والسلطان واتسم بتناسك الشخصية والحياد والنزاهة والشجاعة وارهاف الحس والذكاء، ودقة الملاحظة، لذلك كان من المتوقع والحال كما وصفت أن نجد ثنايا مادونه عن عصره أوسع التفاصيل مع الصورة الزاخرة اجتماعياً وفكرياً وحتى اقتصادياً، أن نجد عنده مالا نجده عند غيره، فهل منعه رقيب أو خاف منه؟ فهو قد أملى كتابه املاء ولم يدونه ومن ثم دفعه إلى الورّاقين كما اعتاد غيره أن يفعل.

لا مكان للأمانى بين وقائع التاريخ وكلمة «لو» مرفوضة لدى الباحثين، لهذا إذا كنا قد قلنا من قبل لدى تقويم المواد التي نقلها الطبري عن تاريخ الفترات التي سبقت عصره: إن كل باحث يجد نفسه مرغماً على أن يبدأ من حيث انتهى الطبري، إن على الطبري - بالنسبة لعصره - أن يبدأ من حيث انتهى غيره.

فهو من حيث المنهج قد تخلى عن الأسانيد، وتخلّى بالتالي عن تعدد الروايات، وجاءت رواياته الآن وفي غالب الأحيان قصيرة مبتورة، كما أنه أهمل روايات أخبار كثيرة جداً، فقد سبق له - مثلاً - أن وصف في أحداث سنة ٢١٠ هـ^(٧) بناء الخليفة المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل، ولكثرة الذي ظهر في حفل الزفاف بات هذا الحفل يعرف باسم «دعوة الاسلام» وظلت «دعوة المأمون حين بنى على بوران ابنة الحسن سهل تسمى دعوة الاسلام حتى جاءت دعوة بركوارا».

وكانت دعوة بركوارا بعد سنة ست وثلاثين، أي بعد ما بايع المتوكل لأولاده: المنتصر والمعتز والمؤيد بولاية العهد، وجرّت «لما أعذر المعتز» ابن قبيصة حظية المتوكل، ووصف الصولي هذه الدعوة بقوله: «أن المتوكل جلس ومدت بين يديه مرافع ذهب مرصعة بالجواهر وعليها من العنبر والمسك المعجون أمثلة على جميع الصور، ومنها ما قدر صرع بالجواهر مفرداً، ومنها ما عليه ذهب وجوهر، وجعل بساطاً ممدوداً، وأحضر الجلساء وسائر الناس، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأنواع الجواهر، و

صادرة، واستخدام الاقطاعيون أعداد هائلة من العمال في زارعهم، وجلبوا مالا يحصى عدده من الرقيق، خاصة لأسود منه، للعمل الزراعي المرهق، خصوصاً في جنوب العراق بسوادي البصرة والكوفة.

و مع منتصف القرن الثالث - وهي فترة عاشها الامام طبري بمثابة شاهد عيان - بدأ الضعف يلم - كما أشرنا - بالكيان لعباسي، وأخذت المشاكل تتفجر بلا انقطاع، وتواءم هذا مع ستيلاء الجند على السلطة وحكمهم على الخلفاء، وبعد ما فعل الغلبان الأتراك هذا انعدم الاستقرار السياسي، واشتدت الصراعات على منصب الخلافة، وتعددت الانقلابات الدموية الشرسة، وهكذا ازداد تدهور الأوضاع من جميع الجوانب، واشتد الطلب للذهب، وعظم دور البيوتات المالية اليهودية - الجهابذة - وفي الوقت نفسه استمر في تلك الأثناء ارتباط رجال الدين - السنة - بالسلطة ممثلة بدار الخلافة ودور القادة والوزراء، وتورط بعضهم بالنزاعات السياسية، وصاروا يسدلون ثوب الشرعية على كثير من الأعمال غير الشرعية، و يقدمون المسوغ لما لا يقبل التسويغ، يضاف إلى هذا أن الحنابلة سيطروا منذ أيام المتوكل على شارع بغداد، وشغلوا أنفسهم بمشاغل لاهوتية لاتسمن ولا تغني من جوع، غافلين - أو متغافلين - عن المشاكل التي باتت تهدد كيان الامة بالخطر.

لقد أفلس الفكر الاسلامي المرتبط بالسلطة، وعجز عن العطاء الاجتماعي، وفقد الناس بكبار العلماء والقضاة لتورطهم مع رجال السلطة، ولشغل أنفسهم بالتجسيم ومساائل علم الكلام الأخرى، كما أن هؤلاء العلماء والقضاة باتوا غير محترمين من رجال السلطة، ومجرد أداة تحت تصرفهم.

و نسوق هنا شاهد مما رواه الامام الطبري^(٨) حول خلع الخليفة المعتز في سنة ٢٥٥ للهجرة - وهذا موضوع لنا عودة نحوه - فبعد ما وصف ما تعرض له المعتز من اهانات وضرب قال: «ثم بعثوا إلى ابن أبي الشوارب - قاضي القضاة - فأحضروه مع جماعة من أصحابه، فقال له صالح - بن وصيف - وأصحابه: اكتب عليه كتاب خلع، فقال: لأحسنه، وكان معه رجل أصبهاني فقال: أنا أكتب، فكتب وشهدوا عليه وخرجوا، وقال ابن أبي الشوارب لصالح: قد شهدوا أن له ولأخته وابنه وأمه الأمان، فقال صالح بكفه: أي نعم».

الطبري والتاريخ لأحداث عصره

لاشك أن السياسة الدينية للمتوكل لاسيما تجاه الشيعة و أهل الذمة قد أرادها اشغال الناس عنه وعن بذخه و اهماله للثغور ومشاكله مع غلمان القصر، فبعد احتفالات بركوارا بفترة ليست طويلة هاجم الاسطول البيزنطي ثغر دمياط في مصر و أعمل بأهله القتل والتحريق والسبي.

من غيرالممكن عقد مقارنات بين مارواه الطبري عن أحداث عصره ومارواه غيره مثل الصولي والدولابي، فذلك قد يحتاج الى اطروحة خاصة، ويكفي هنا اثاره الموضوع والتنبيه على أهميته، و على هذا لعله يكفي أن نتوقف مع ما رواه عن حركة القرامطة و تطور نشاط أتباعها في العراق والشام، إنما قبل ذلك هناك سؤال يخطر بالبال هو: كيف كان الطبري يحصل على المعلومات حول حوادث عصره؟.

من حيث المبدأ نادراً ما تعرض الطبري لذكر مصادره، و يرجح أنه لم يطلع على الوثائق الرسمية ومدونات الحكومة، فهل ياترى دون ماتداولته أوساط العلماء والطلبة مع أوساط العامة؟ إذا صح هذا فإنه كان شخصياً حيك الأخبار وصياغتها و تدوينها، و أن مسؤولية الانتقاء مع التدوين تقع هنا عليه، و أن مادونه هو مرآة عاكسة لشخصيته، أكثر مما هو دليل على حجم و نوع المواد الاخبارية التي وصلت إلى أوساط الناس في بغداد، ولعل أصدق برهان على هذا الرأي هو مارواه حول نشأة حركة القرامطة.

فبعد ما أورد لنا حكاية حمدان قرمط بشكل متداخل و شبه اسطوري هو الأشبه بمايتداوله عامة الناس، سجل لنا نص كتاب قال، إن القرامطة حكوا فيه مذهبه.

لم يتفحص الطبري مادته التي دونها عن نشأة القرامطة بدقة، فقرمط ساعة مؤسس مذهب و مرة أخرى داعية لمذهب نال اسمه منه أومن داعية آخر، و في الوقت نفسه يقال إن هذا المذهب دين خارج عن دين الاسلام.

وزاد الأمر تحبباً حين روى لنا صيغة كتاب مطلعته: «بسم الله الرحمن الرحيم: يقول الفرج بن عثان - وهو من قرية يقال لها نصرانة - داعية إلى المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل، وذكر أن المسيح تضرره في جسم انسان وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك روح القدس، وإنك

جعل بين صوانيه من الجانبين و بين طرفي هذا المعبي فرجة، وجاء الفراشون يزبل قد غشيت بالأدم مملوءة دنائرو و دراهم نصف فصبت في الفرجتين حتى ارتفعت على الصواني، و أمر الناس أن يشربوا و ينتقل من يشرب من تلك الدنانير ثلاث حفنات بكفه كأنها ما كانت، و كلما خف موضع جبي بالزبل فرد إلى حاله، و وقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا: إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ماشاء، فمد الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، و كان الرجل منهم يثقله مامعه فيخرج فيسلمه الى من معه ويرجع، و خلع على سائر الناس، بعد أن صليت الظهر، خلعاً حسناً على مراتبهم، و كذلك بعد العصر والمغرب، و اعتق ستة آلاف نسمة، ولم يتخلف عن هذا الأمر أحد، و كان فيه جلساء المتوكل كلهم».

و بعد أيام من هذا الحفل المروع أجرى المتوكل نفسه حفلاً آخر بمناسبة ختم المعز للقرآن الكريم، نثر فيه من الجواهر والدراهم والدنانير ما لا يحصى، و امتد الحفل عبر عدة أيام: «في يوم منها دغته قبيحة، فيقال إنه لم يريوم مثله سروراً و حسناً و كثرة نفقة، و أن الشمع كله كان عنبراً إلا الشمعة التي في الصحن فإنه كان وزنها ألف مثناً، فكادت تحرق القصر، و وجد حرها من كان في الجانب الغربي من دجلة.

وقد كان أمر المتوكل أن يصاغ له سريران أحدهما ذهب والآخرة فضة، ويفرش السرير الفضة ببساط حب و بردعة حب و وسادي حب، و مخدتي حب و مسندي حب منظوم على ديباج أسود، و كان طول السرير تسعة أذرع.

قال: فأخرج من خزانة الجوهر حب عمل منه ذلك، فكان أرفع قيمة الحبة ديناراً، و أقل القيمة درهماً، فاتخذله ذلك، و أمر بفرش السرير الذهب بمثل فرش السرير الفضة منقوشاً بأنواع الجواهر الأحمر والأخضر والأصفر والأنواع ففرشا فقعد عليهما هو و قبيحة، ثم و هبهاها.⁽⁸⁾

إن هذا الوصف مهم بالنسبة للباحث في تاريخ الدولة العباسية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والصناعية الى غير ذلك، هذا كله لم يشر إليه الطبري أدنى إشارة لكنه أشار⁽⁹⁾ إلى أن المتوكل أمر في سنة الحفلات هذه «بهدم قبر الحسين بن علي، و هدم مأحوله من المنازل والدور، و أن يحرق و يبذر و يسقى موضع قبره، و أن يمنع الناس من اتيانه».

يحيى بن زكريا...».

إنه لأمر يبعث على الدهشة أن يثبت الامام الطبري هذا النص في كتابه، بكل تناقضاته وأوهامه، فقد روى أولاً قبل إيراد هذا النص أن الذي انتسب إليه القرامطة هو رجل قدم من ناحية خوزستان، اسمه حمدان، ونال لقب قرمط، لكن الآن لا وجود لهذا الرجل في الكتاب الذي حوى عقيدة القرامطة، و حل محله من اسمه الفرّج بن عثمان من قرية اسمها نصرانة و ليس من خوزستان، وفي هذا الكتاب الذي بدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» فيه عقيدة تتصل بالمسيحية واليهودية والندعية والكيسانية وآثار اسماعيلية مع أخذ بفكرة المهدي المنتظر، وهذا ما لم تثبته الكتابات القرمطية وما جاء لدى رجال الملل والنحل. لقد فحصت مسألة نشوء القرامطة في كتابي «الجامع في أخبار القرامطة» و وجدت أن سعد القمي أقدم رجال القرن الثالث من أشار إلى القرامطة وبداية حركتهم، والفارق كبير جداً بين ما جاء عند القمي وما جاء عند الطبري، يقول القمي: وتشعبت بعد ذلك فرقة... ممن قال بامامة محمد بن اسماعيل تسمى القرامطة، سميت بذلك الرئيس كان لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب بقرمطويه.... و قالوا: يكون بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - سبعة أئمة: علي وهو امام رسول والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ومحمد بن اسماعيل بن جعفر وهو الامام القائم المهدي وهو رسول، وهؤلاء رسل أئمة، وزعموا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب للناس بغدير خم، فصارت الرسالة في ذلك اليوم إلى أمير المؤمنين وفيه، واعتلوا في ذلك بخبر تأولوه و هو قول رسول الله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة وتسليم منه ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك صار تابعاً لعلي محجوباً به، فلما مضى أمير المؤمنين صارت الامامة والرسالة في الحسن ثم صارت من الحسن في الحسين، ثم صارت في علي بن الحسين، ثم في محمد بن اسماعيل بن جعفر، كما انقطعت الرسالة عن محمد في حياته، ثم إن الله بدا له في امامة جعفر واسماعيل فصيرها عز وجل في محمد بن اسماعيل، واعتلوا في ذلك بخبر روه عن جعفر بن محمد أنه قال: ما رأيت مثل بدء

بدا الله في اسماعيل، وزعموا أن محمد بن اسماعيل حي لم يمت، و أنه غائب مستتر في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة وينسخ بها شريعة محمد وأن محمد بن اسماعيل من أولي العزم، وأولوا العزم عندهم سبعة.... واعتلوا في نسخ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأخبار روهها عن جعفر بن محمد أنه قال: لوقام قائمنا علمتم القرآن جديداً.... و زعموا أن محمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين.... وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة، في كل جزيرة حجة، و أن الحجج اثنا عشر.... وزعموا أن جميع الأشياء التي فرضها الله على عباده و سنّها نبيه فيها ظاهر و باطن... واستحلوا مع ذلك استعراض الناس بالسيف و سفك دمايهم والشهادة عليهم بالكفر و الشرك... و قد كثر عدد هؤلاء القرامطة، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة، و كان كلهم بسواد الكوفة، وكثروا بعد ذلك باليمن و نواحي البحرين واليمامة و ما والاها، و دخل فيهم كثير من العرب فقوي حالهم بهم وأظهروا أمرهم^(١٠) لقد أكد كلام القمي الذي اختصرته النوبختي ثم الأشعري و من جاء بعدهما من كتاب الفرق، ودعمته المواد التي أودعها الداعية القرمطي عبدان في كتابه «شجرة اليقين». و توصلت بنتيجة البحث إلى أن حركة القرامطة كانت باطنية تفرعت عن الدعوة الاسماعيلية، و أنها كانت سبعية تعليمية، تؤمن بعقيدة القيامة التي فيها القائم سابع الأنبياء ذوي العزم وآخرهم.^(١١) من هنا قلت إن الطبري يبدأ بالنسبة لأخبار عصره من حيث انتهى غيره، لقد كان من المنتظر من هذا المؤرخ الكبير الواسع العلم الغزير المعرفة أن يقدم لنا غير ما قدمه عن القرامطة و غير ذلك من أحداث عصره. لاشك أن عزلة الطبري و بعده عن رجال السلطة و رجالتها و عيشه في وسط عام شبه شعبي هو الذي أملى نوعية المواد التي دونها، و هذه المواد و إن كانت غير واقية، و بعضها غير مقبول - كما ذكرنا حول نشأة القرامطة - إن هذه المواد لها قيمتها الكبيرة لأنها صدى مدوي لما تداوله بعض العلماء و العامة في بغداد بعيداً عن دار الخلافة و قصور القادة و الوزراء و الكتاب، وإذا صح هذا التصور، فإنه يضيف على تاريخ الطبري قيمة خاصة عالية، و يجعله بالفعل فريداً لا بالنسبة لما كتبه عن تاريخ الاسلام المبكر فحسب بل لما كتبه عن عصره.

الطبري والتاريخ لأحداث عصره

المصادر والهوامش:

- ١ - كتاب السير والمغازي والفتوح، سهيل زكار، ط. بيروت سنة ١٩٨٩ ميلادية.
- ٢ - تاريخ الطبري، ج ١، ص ٦، ط. دارالمعارف.
- ٣ - تاريخ الطبري، ج ١، ص ٧ - ٨.
- ٤ - تاريخ الحكماء، للقفطي، ص ١٠٩ - ١١١.
- ٥ - انظر معجم الادباء، ٢٢٥/٦.
- ٦ - تاريخ الطبري، ج ٩، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.
- ٧ - تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٦٠٦ - ٦٠٩.
- ٨ - بغية الطلب، ج ٨، ص ٣٧٦٣ - ٣٧٦٦.
- ٩ - تاريخ الطبري، ج ٩، ص ١٨٥.
- ١٠ - المقالات والفرق، ص ٨٣ - ٨٦.
- ١١ - انظر الجامع، ج ١، ص ١٠٩ - ١٢٣.